هشام توفيق الركابي

الأنشوطة

لفترة طويلة ظل صوت اصطفاق الامواج وتلاطمها ـ وهي تضرب الجوانب الخشبية للقـــارب ـ يرن في أذني الرجل الذي استيقظ الآن ، كنذير غامض مختلط ، تركه في شبه ذهول غريب . وبخليط من الدهشة والغضب جالت نظراته في الفضاء الممتد حوله . كان الظلام القاتم يمتد حتى مدى البصر ، يندفق بكثافة فيريق في محجريه اللذين اتسعا اون الفحم . وعلى غير ارادة منه ارتفعت يده في الهواء. لامست الاصابع المنفرجة جسما خشبيا باردا فتقلصت في الحـــال شفتاه على همهمة معجمة وجلس في انتفاضة واحدة خرساء .

« لقد انتهينا » .

كان القارب ينحني مع تيار الماء الاسود برهة وجيزة ثم تنسلق مقدمته المدببة تورم الموج البطيء ويهبط كما لو ان البحر بأكمـــله يتهاوى الى القعر .

تأوه الرجل بينما تسلقت كفه الظـــلام ثانية وأمسك بالمجذاف الذي أصبح الآن أقرب الى جسده ثم شزر الطفل النائم في مؤخرة القارب بغيظ :

ـ انهض .

شرخ صوته الصمت غاضبا :

ـ قلت انهض أيها الابله .

تحرك جسد الطفل بسرعة وانبعث منـــه خرير اندهاش مرعب اختلط باصطفاق الامواج فلم يتميز . وكما يحدث لشخص يحدثنفسه كرر الرجل بضجر لا يطاق :

« لقد انتهينا » .

مال القارب يسارا مع حركة الرجل الذي نهض الآن يبحث في جيوبه بطيش . للحظة واحدة فقط اندلع في السواد ضوء عود كبريت وحيد ، فتوضح بطن القارب كاشفا عن كومة أجساد طرية منالسمك الميت وشبكة صيد وفانوس عتيق . فبب الرجل ظهره ، وببطء اندلع لسان الضوء من جديد ، بينما امتدت اليد الثانية نحو الفانوس . لحظات وسال نور باهت شرخ السواد المستحكم قليلا . تنفس الرجل بعمق وزوى بين حاجبيه شازرا الطفل الذي كان فمه المفغور لا يزال ممتلئا بالظلام :

ـ أيها الابله .

سبحت رعشات متتالية صغيرة على جسد الطفل في حين ظلت عيناه مشدودتين الى البحر في سكون .

ـ الم تستطع ان تقاوم النوم ؟

كانت السماء تتحول الى كتلة فحم هائلة من السحب السوداء . ونبضت نجمة لدى الشرق سرعان ما غيبها طلاء عجيب . انـــداحت أنفاس مختلطة حول فم الطفل الذي كان ما يزال مشرئبا برقبتـــه الى الامام .

ـ سوف ندور في دوامة من التيه والضياع . لا ساحل يبدو ، ومعرفة طريق الشاطىء الآن أشبه بالمستحيل .

ـ هناك ...

تمتم الطفل ثم وقف باضطراب . وبثقل مد سبابته نحو الظـلام الحالك حيث امتزج البحر والسماء في خليط واحد أسود .

ـ الشاطىء هناك يا أبي . أمامنا بالضبط .

ـ ماذا ؟

ـ هكذا كان اتجاه القارب ونحن نعود .

أحس الرجل وكأنه في قبضة غضب تتناوشه في الاعماق ، فزار بحنجرة من نحاس :

ـ أيها الابله !

لبرهة لم يعد الطفل يقادر على تحريك شفتيه . تعلقت يـــده أمام جسده كعضو منفصل عنه بينما خطا الرجل بين طيات النـــور الباهت للفانوس الذي كان يلقي على وجه الطفل لونا جثثيا باردا . وفي لحظة وامضة أشبه ببريق ذكرى بعيدة وجد نفسه فجاة وقـــد تعلقت عيناه على نهاية صفحة البحر الاسود . كانت ومضات ضـــوء منحرك باطراد تلهث بصورة متناوبة ، في شبه ذهول ، سدد الرجل نظراته المتقدة . كان الضوء المتراقص يتعقب أشكالا على البعد الذي لا نهاية له . مال القارب ثانية الى اليسار ، فتراجع جسده يمينـا وبدا وكأنه على وشك السقوط الحتمي . تعلقت يده في الفضـاء لحظة واستقرت أخيرا على جانب القارب المائل في نفس اللحظـة التي كان جسده يتقوقـــع فيها بازدراء في منتصف القـــارب . صرخ الطفل بخوف :

ـ أبـي ...

دون كلام حرك الرجل جسده بغيظ . وقف ثم سبـح في طيات النسيم الـــذي طوقه ليجلس في مكانه السابق . وبعزم امسـك بالمجذافين المنطرحين على جانبي القارب ، وأخذ يجذف بقوة عـــلى جهة واحدة ريثما استدار القارب تماما الى الوراء واصبحت مقدمته في مواجهة الضوء الراجف في البعد . قال الطفل بدهشة :

ـ ماذا تفعـــل يا أبي ؟! أننا نبتعد عن الشاطـىء الآن . صدقني ...

هز الرجل رأسه بامتعاض وصمت .

تركت عينا الطفل النظر الى المجذافين ومال بجسده لدرجـــة مكنته من ملامسة سطح البحر المتحرك . وببلادة تابع الخط المائـــي المقبب الذي كان يخلفه القارب في الماء . قال الرجل :

ـ حذار من السقوط !

اعتدل الطفل في الحال وتطلع الى الخلف . اصطدمت نظراتـه للمرة الاولى بالضوء فهمس بياس :

ـ أتظنه الشاطىء ؟

واصل الرجل تجذيفه بحماس وانفعال شديدين :

ـ انا خائف بشدة يا ابـي .

بعينين براقتين مضطربتين ، وللحظة واحدة ، نظر الرجل في عيني الطفل فشعر بقشعريرة باردة تزحف الى بشرته .

واصل الطفل :

ـ اخشى ان لا نصل الى نتيجة لو تبعنا هذا الضـوء المتذبذب .

احتدمت في قلب الرجل ثورة حنق جامحة فصرخ :

ـ كفاك هذرا .

خبا الضوء المتراقص على البعد فجاة ، فاتخذ وجه الرجـل تعبيرا كريها وانبعث من بين شفتيه أنين يكاد يكون عواء خافتا .

ـ أبي . ألا نستطيع أن نحدد جهة الشاطىء بأنفسنا ؟

زعق الرجل كحيوان جائع :

ـ وكيف ؟

حدق الطفل في ضوء الفانوس الذي كان يتضاءل في رعشات باهتة . همس :

ـ لنسر شرقا . هكذا كنا نعود كل مساء . ألا تتذكر ذلك ؟

على وجه الطفل ثبت الرجل نظرة باردة مزرية :

ـ وأين الشرق ايها الابله ؟ لم تعـد هناك جهات الآن . نحـن في المركز المتحرك للاشياء ، حيث لم يعد الشرق جهة قط . كل ما حولك شرق . وكل ما حولك شمال وجنوب .

تأوه الطفل وقد تجمع داخل عينيه آخر ومضات الفانوس الذي اختلج فجاة في شعلة أخيرة ليسود الظلام . قال الرجل :

ـ كان الوقود على وشك الانتهاء .

بان الضوء الذي فرض نفسه على عيني الرجل والطفل الآن اكثر لمعانا ، فحدث الرجل نفسه « يجب ان اسرع » . ثم تنشق الريـح الرطبة للبحر بانشراح .

انزلق القارب فوق موجة غاضبة ، وبدا للرجل والطفل وكانـه طار ثم تهاوى في انزلاق جنوبي نحو أعماق البحر . لبرهة وجيـزة فقط فقدا توازنهما ، غير ان القارب ما لبث ان هدأ في مسـاره الذي لم يتوقف . قال الطفل وهو يمسك بنتوء خشبي في المقدمة :

ـ ماذا لو مكثنا حتى الصباح ؟ سنعرف حينها الطريق بيسر .

اجاب الرجل بحدة :

ـ قد تهب عاصفة . لاحظ اشتداد الريح .

ـ كان علينا أن لا نغير سير القارب ، فالشاطىء كان قريبا .

كور الرجل غضبه الذي بلغ ذروته بصقة وقذفها الى البحر . واصل الطفل :

ـ من يعلم ؟! من الممكن ان يكون هذا الضـوء منبعثا من باخرة بعيدة تتجه لمكان ما . ثم انظر .. ها هو يخفت ثانية ...

تطلع الرجل الى الضوء المستحكم في البعد بغضب وحيرة دون أن يجيب .

ـ أو ضوء قارب تائه كقاربنا .

ـ . . . .

ـ أو ...

ـ كفى ايها الابله !

مزقت صرخته اليائسة اصطفاق البحر فسكن الطفل وعينـاه غارقتان في العتمة الممتدة مدى البصر . وفي لحظة واحدة ودون ان يعلم الرجل كيف ، حجبت الظلمة كل اثر لضوء ما . لقد اختفـى الضوء وابتلع الظلام كل مدى لنظرات الرجل التي أخذت تطـوف بجنـون .

ازدادت حدة الهواء مرة اخرى ، وزأر الرجل :

ـ كان يجب أن لا تنام . كل ما يحدث هو بسببك أنت .

باختلاجة تشبه البكاء تمتم الطفل :

ـ ولكنك كنت نائما أيضا .

تخلت يدا الرجل عن المجذافين بهدوء وانبرى الماء يداعب القارب بشهوة صاخبة دون هدف . أجاب الرجل :

ـ كنت تعبا بشكل فظيع .

ارتعشت الشفة السفلى للطفل وتمتم في رعشات بكاء مقبل :

ـ لم أستطع أن أواصل . صدقني ...

وأجهش في بكاء محرق . بغتة .. توسد الضوء صفحة البحـر مرة اخرى ، فبانت ومضاته الآن في نقطة خيل الى الرجل انها اكثر قربا من قبل ، ولكنها كانت قد تحركت من موقعها الاول مسافـة طويلة . فالضوء يلمع يسار القارب تماما . بضربات متتالية تغيرت وجهة القارب للمرة الثانية . قال الرجل وقد خفت حدة صوته :

ـ لا بأس . سنصل بعد قليل .

واصل الطفل بكاءه بخفوت وهو يتمتم :

ـ كانت الشمس تغوص في البحر ، وكنت أجذف ، وأنت مستغرق في النوم ، فتوغل خدر لذيذ الى جسدي وأحسست بالعجـز . لم أستطع ان اواصل .. ثم غفوت دون وعي .

مال القارب بشدة . فقد الرجل توازنه اثر ذلك وانطـرح الطفل جانبا وهو متشبث بالنتوء الخشبي . اختض ما في القـارب واهتز لفترة قصيرة ، وحالما خفت حدة الميلان قال الرجل :

ـ سينتهي كل شيء الى خير . أترك البكاء الآن .

برعشات أشد ارتفع نحيب الطفل :

ـ كان يجب أن لا نبتعد كثيرا عن الشاطىء يا أبي . أن نعـود مع انتصاف النهار ، ولكنك رفضت .

عندما تطلع الرجل الى البعد من جديد بعد تجذيف طويل متعب لاحظ للمرة الثانية اختفاء الضوء عن صفحة البحر . لدقائق مملة اتسعت حولهما هوة من الصمت العميق . كانت حدة الامواج المتضاربة حول جوانب القارب تزداد لحظة بعد اخرى . وكان في الجو تخلخل لريح تسفع في فترات متقاربة . تمتم الطفل ببكاء :

ـ كان يجب أن لا تغير اتجاه القارب .

ـ ولكننا تركناه لعبة في يد البحر مدة طويلة ونحن مستغرقـون في نوم سخيف .

مسح الطفل غشاوة الدموع عن عينيه .

ـ لم تكن هناك رياح عندما غفوت . وكانت هادئة بعدها . فلماذا يغير القارب وجهته ؟

جمد الرجل في لحظة تفكير :

ـ انه احتمال فقط .

ـ وهذا الضوء يا أبي !! ماذا تظنه بالله ؟

بتلقائية نظر الرجل حوله . صدم عينيه الضوء النابض مـن جديد . كان عن يمينه الآن تماما ، وبدأ اقل توهجا واكثر بعدا ، وفي يأس مقيت احس بالفزع القاتل يغمر جسده ، ووجد نفسه ينظـر الى الطفل والقارب والبحر كمجرد اشباح ففقدت الحقيقة دفعة واحدة. وود ازاءها لو يرتمي في قعر القارب في نوم أبدي . غير انه ما لبث ان ادار المقدمة باتجاه معاكس للضوء الذي أخذ يلمع بقوة وهمس بصوت خفيض :

ـ لقد فات الاوان .

صوب الطفل نظرات فاحصة الى الرجل للمرة الاولى وتوالت الانفاس في صدره وهو يجيب :

ـ ساجذف انا الآن يا ابي .

عاد القارب الى الانزلاق على الامواج الثائرة بعد دورته الـى الوراء . نهض الطفل والى جوار أبيه جلس . وبأمل توقد في عينيه امسك بالمجذافين يلطم بهما الموج بينما كان والده يتطلع الى الضـوء الذي كـان يخفت من جديد .

محافظة واسط (العراق)